مستصغر الشرر!! (*)

من نحو خمسين عاما، قرأت فى مجلة "الريدرز دايجست" ـ وكانت دار أخبار اليوم تترجمها وتتيحها مترجمة للقارئ العربى بعنوان" المختار" ـ.. قرأت قصة واقعية عن إحدى الطائرات الأمريكية المقاتلة.. كانت الطائرة النفاثة المقاتلة رقم ٣١٣ واقفة بالمطار على الممر، تتهيأ للإقلاع بقيادة طيارها القدير.. الظروف كلها مهيأة لإقلاع آمن.. تقول الدراسة المعدة أنه يلزم الطائرة ٢٠٠٠ متر للتحليق، بينما طول الممر ٢٤٠٠ مترا بزيادة أربعمائة متر عن المطلوب، وهذا كافٍ وزيادة لتحليق الطائرة تحليقاً آمنا قبل نهاية الممر.. كان الجو طيبا، والسماء صافية، والشمس مشرقة، ولكن لسوء الحظ هبت مع بداية الإقلاع نسمة طفيفة عند ذيل الطائرة مثلت عاملا معاكسا استنفد ٩٥ مترا من الرصيد الاحتياطى لمسافة التحليق.. لا بأس!.. فالرصيد كافٍ لإقلاع آمن، انطلقت الطائرة دون أن يلتفت أحد إلى أن تأخر الإقلاع عن موعده نصف ساعة صادف ارتفاع درجة الحرارة درجتين بددتا ٦٠ مترا أخرى من الرصيد الاحتياطى لمسافة التحليق!.. من مصادفات المقادير أن الطيار لم يطر سلفا من هذه القاعدة، فلم ينتبه إلى خداع بصرى أخفى عنه ارتفاعا غير محسوس عند الطرف النهائى

---

* ٢٠٠٥/١٢/١٠

للممر يتطلب ١٦٥ مترا أخرى للتحليق، فانكمش الرصيد المتبقى من مسافة الإقلاع إلى ٨٠ مترا هى كل الفاصل المتاح لضمان السلامة قبل الوصول إلى نهاية الممر!.. ولكن هذا الرصيد المتبقى أضاعه هو الآخر فارق غير محسوس فى تقدير وزن الوقود البارد الكثيف بعد ليلة قارسة البرودة، فأضاف فارق الوزن ١٢٥ مترا إلى المسافة التى يلزم أن تقطعها الطائرة لتتمكن من التحليق.. هذا الرصيد المبدد استهلك كل المتبقى وصارت الطائرة فى احتياج إلى ٢٥ مترا أخرى زيادة على طول الممر.. وهنا مكمن الخطر البالغ الذى نجم عن تراكمات صغيرة ضئيلة فاتت الجميع!.. تسربت هذه الشذرات الصغيرة وزحفت كزحف الكثبان الرملية دون أن يلحظها أحد، فانطلقت الطائرة دون أن يدرى قائدها ولا برج المراقبة بالمطار بما تخبئه الأقدار!.. فقد تبدد كل الرصيد الاحتياطى اللازم للتحليق الذى بات يلزمه ٣٥ مترا زيادة عن طول الممر الذى يجثم فى نهايته القدر المحتوم!.. زاد الطين بلة، أن الطيار وقد بدأ الانطلاق على الممر، أفلتت منه فرصة التخلص من الخزانات المعلقة بجناحى الطائرة لتخفيف الحمولة طنا يساعدها على التحليق قبل الوصول إلى نهاية الممر، مثلما أفلتت منه فرصة إيقاف الطائرة المندفعة فى الوقت المناسب!.. أخذت علامات التحديد والمسافات على جانبى الممر تتوالى، ولم تفلح محاولات الطيار لتفادى الكارثة التى أخذت تتراءى مقدماتها أمام نظره، وفى غمرة اليأس جذب آلات القيادة، فتعثرت الطائرة بضعة أمتار فى الهواء، قبل أن تندفع بقوة إلى الأرض الواقعة وراء الممر المهد

وتنغرس برأسها بسرعة ١٤٠ عقدة، ويدوى انفجارها فى ثوان معدودات ليهز المكان برمته هزا عنيفا، وتتلاشى الطائرة المحترقة ومعها الطيار الذى تجمعت ضده هذه الشذرات الضئيلة الزاحفة كحبات الكثبان الرملية التى لم يلحظها أحد قبل أن تصير جبلا سطر الفصل الختامى التعس فى هذه المأساة!

منذ قرأت هذه القصة الواقعية وهى لاصقة فى وجدانى، لا تفارقنى، وتلفتنى دوما إلى أن المصائب تأتى من مستصغر الشرر، وأن الخطر الحقيقى الذى يصادف الأفراد والجماعات، قد لا يأتيها من الأخطاء أو الأغلاط الكبيرة، لأنها لافتة بحجمها، تنتبه إليها عين الخبير، وربما غير الخبير، وعساها تلاقى من الانتباه والتفطن ما يرد غائلتها أو بعض غائلتها..ولكن الأخطار الجسيمة تأتى من المنمنمات التى تتسرب إلى حياتنا كزحف الكثبان الرملية دون أن ينتبه أو يتفطن إليها بحر العاديين من الناس..هذه الشذرات تكبر بالتجمع حتى تصير تلالاً ثم جبالاً تحتاج إلى جهد جهيد فى فك طلاسمها وسبر ومعرفة عوامل النحر التى توالت فشكلتها فى شكل قد تختفى أو لا تظهر فيه معالم جزئياتها المتراكمة على مر الزمن ومع بحور الغفلة واللا تفطن.. ثم هى تحتاج إلى بصيرة نافذة لفهمها واستيجاد الحلول المتنوعة العريضة اللازمة لمداواتها.. فى هذه الجلبة الزاعقة التى تعيشها مصر هذه الأيام، لا نلتفت مع كثرة التصايح والتصادم وانتصار كلٌ لذاته أو لمعسكره، إلى أن حال مصر المحروسة قد تراكمت فيه شذرات أقامت حوائط عالية تصيب الكثيرين بالحيرة وتعجزهم عن الفهم إن أرادوا أن يفهموا، هذا العجز عن الفهم لم يطرأ فجأة، وإنما زحف مع زحف الذرات التى لم نتفطن إليها فى حينها، ولا وعينا اثر تلاصقها وتراكمها فى جعل الحياة كالدغل الكثيف الذى لا يُرَى ما وراءه، ناهيك بما تحته!!..

ليس مقصودى، ولا تتسع المساحة، لاستقصاء أكوام الكثبان التى تراكمت، فهى عديدة عريضة بعرض حياتنا السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وقد يغنى هنا التمثيل والإشارة عن التوسع والإطناب.. ما الذى جعلنا نعتاد القبح ونفرزه ولا نعرفه بكل معانيه المادية والمعنوية؟!.. القبح ملازم للجمال، كلاهما موجود، ولكن عافية الأفراد والجماعات تتبدى فى نفورها من القبح بأكثر مما تتبدى فى عشقها أو إقبالها على الجمال!.. امتصاص القبح وإفرازه ضمور مخيف لا يأتى بين يوم وليلة، وإنما هو حصاد تراكمات استغرقت سنين عددا تفشى فيها سوء النظام واستمراء الفوضى وطغيان العشوائيات وزحف القذارة.. ليس فقط على الطرقات والمرافق والأبنية، وإنما على عادات وسلوكيات وقيم الناس!.. شمل الزحف مجافاة قيم الصدق والجد والأمانة والزهد والوقار والإخلاص والطهر والشفافية والعدل والاستقامة، وصارت المداهنة مع الرياء والمظهرية والبهلوانية أسلوبا يكاد يكون ملمحاً فى كثير من المجاملات، حتى الرياضة التى صارت مهيضة بفعل فاعلين تحوصلو حول مآرب ذاتية أفسدت الرياضة والرياضيين !!.. لم نعد نفزع من التفاهة والنفاق والفهلوة والديماجوجية والسطحية وأبقاق الكلام التافه الذى لاقيمة له ولا معنى ولا جدوى.. بزحف كثبان على مدار سنوات، تحولت قرانا من مراكز إنتاج زراعى وحيوانى وداجنى وصناعات صغيرة، إلى جحيم طارد صدر ويصدر إلى العاصمة وباقى المدن تلالاً من العشوائيات التى أخذت تتنامى أمامنا ونحن لا نبصر ولا نلتفت حتى صارت كارثة تهدد بالدمار قيمنا الأخلاقية والدينية والمجتمعية فضلا عن التعاسة التى تلازم ساكنيها وقد انحشروا وتلاحموا فى الضيق والظلام فتفشت بينهم علاقات آثمة بين المحارم تتفطر لها السموات!.. انفصلت عندنا الكلمات عن السلوك والأعمال، وتاهت البوصلة أو تكاد!.. لم يحدث هذا بين يوم وليلة..

وقس على ذلك كثيرا كثيرا فى حياتنا السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وإنما زحف زحف الكثبان الرملية لسنوات عديدة دون أن نتيقظ ونلتفت إلى تراكم ذرات أو حبات الرمال حتى صارت تلالاً تصيبنا بالعجز والحيرة!!

سواء الأفراد والمجتمعات رهين بحالة التفطن التى يتعين أن تلازم تعامل الحى مع الحياة ليتأمل تأملا فاهما منتبها واعيا لما يجرى حوله، ويقسط بالتفاته وعنايته كل شىء حقه من البحث والتمحيص والتدارك والعلاج.. وأحسب أنه على مدى سنوات زحفت كثبان شكلت تلالا، وأننا قد ضبطنا أنفسنا فى النهاية متلبسين بالحيرة والعجز، لأننا لم نحسن الالتفات إلى كل شىء فى أوانه.. أتذكر هذا وأنا أعيد النظر والتأمل فيما فعله علماء الحملة الفرنسية التى احتلت مصر فى عام ١٧٩٨، فلم يقعدهم أنهم ليسوا أصحاب البلد، ولا أثبطهم أنهم لا يعرفون إلى متى سوف يمتد الاحتلال الذى من المؤكد أنه فى النهاية سينقشع بهم عن أرض مصر المحروسة.. ولا أيأسهم أنهم قد لا ينتفعون أو تنتفع بلدهم بثمار العمل العريض الهائل الذى رصدوه وعكفوا عليه فى رائعة "وصف مصر" التى جابوا من أجلها البلاد، جغرافيا واجتماعيا، ودرسوا وفحصوا وتأملوا، ليسجلوا حصاد هذا فى عمل ضخم بالغ الثراء والأهمية كان فى متناولنا من ثلاثة قرون لم نلتفت فيها إليه ولا إلى ترجمته إلاّ مؤخرا، عازفين باللاوعى عن حصاد هائل بذله غيرنا دراسة لبلدنا، تماما مثلما نعزف ولا زلنا عن دراسة جمال حمدان العميقة لعبقرية المكان فى رائعته المطولة "شخصية مصر" نتغنى بها ولا نقرأها، ناهيك بأن نستوعبها ونستفيد بها.. ولذلك حديث آخر!!